من عالم الصراب

ما بقي في البئر

قصة قصيرة من عالم الصراب

مهلهل علي الفقيه

في الليلة التي قرر فيها يوسف أن يعترف لمريم، قضى ساعة أمام المرآة يحاول أن يجعل وجهه يبدو أقل حزناً.

لم يكن يخشى أن تظنه كاذباً. كان يخشى أن تصدقه، ثم ترقّ له.

وكان قد تعلّم، خلال سبعة أشهر، أن الحزن إذا ظهر على وجه صاحبه قبل الاعتراف، صار كأنه يطلب من المظلوم أن يستقبله برفق.

غسل وجهه بالماء البارد. ثم استاء من نفسه لأنه استعمل ماءً كثيراً، واستاء أكثر لأنه لاحظ ذلك في ليلة كهذه. حتى ضميره، فكّر، يريد أن يوفر شيئاً.

وجدها في البستان، جالسة عند شجرة الرمان التي يبست نصف أغصانها. كانت تضع يدها على حجر السقي عند الساق، وتقرأ كتاباً مفتوحاً على ركبتيها. لم يتحرك في الساقية شيء. ولم تكن تنتظر أن يتحرك. حين رأته رفعت إصبعاً، تطلب إليه أن ينتظر.

انتظر.

كان يحب فيها هذه الحركة الصغيرة. لا تقوم له، ولا تعتذر عن انشغالها، ولا تتظاهر بأنه أهم مما في يدها. وكان يبغض فيها الحركة نفسها حين يطول انتظاره.

قالت، وهي تسحب يدها عن الحجر:

«كنت أعرف أنك ستأتي.»

فكر أن يجيب: إذن تعرفين كل شيء.

لكنه قال:

«كيف؟»

«أعدت الكتاب أمس، وبقيت واقفاً عند الباب حتى جاء أخي. تفعل ذلك حين تريد أن تقول شيئاً ثم تندم.»

أغلقت الكتاب وتركته على التراب.

كان بينهما حديث زواج لم يُتمّه أحد. أمّه تسميها، حين تكون راضية عنه، «ابنتنا مريم». وأخوها يسأله عن راتبه كأنه يسأله عن الطقس. أما هما فلم يقولا شيئاً صريحاً، واستطاع كل منهما، بفضل هذا السكوت، أن يعدّ الآخر وفياً من غير أن يمنحه وعداً.

قال يوسف:

«أريد أن أخبرك عن أبيك.»

نظرت إلى يده. كان يقبض على إبهامه حتى ابيضّ طرفه.

«ماذا عنه؟»

جلس على الحافة المقابلة لها من حوض الشجرة، ثم نهض. بدا له الجلوس إلى جوارها حقاً لم يعد يملكه.

قال:

«يوم أغلقوا بئره... أنا كتبت التقرير.»

لم تتحرك.

كان قد تصور أنها ستسحب يدها، أو تقوم، أو تقول له كلمة يستطيع أن يكرهها بسببها. لكنه لم يجد شيئاً يقاومه.

وأضاف مسرعاً:

«لم أكن أعرف أنهم سيأخذونه.»

وهذه، على صحتها، كانت أول كذبة.

* * *

قبل عام، كانت أم يوسف تعجز عن صعود الدرج إلا إذا استراحت مرتين. وفي الليل كان يسمعها تحبس سعالها في الوسادة، خوفاً من إيقاظه، فيستيقظ على صمتها ويظل ينتظر الصوت الذي تطمئنه به إلى أنها ما زالت هناك.

احتاج علاجها مالاً لا يملكه.

وكان يعمل كاتباً في ديوان الماء؛ ينقل أسماء الآبار ومقادير ما نقص منها، ويصوغ بألفاظ مرتبة أشياء حدثت لأناس لم يرهم قط.

أما أبو مريم، فكان يترك بئره مكشوفة.

لم يقل إنها للناس. كان يغضب إذا سمع أحداً يقول ذلك، ويجيب: «هي لي. وأنا الذي أتركها.»

وكان جيرانه يسقون شجرهم من مائها. يمر الفلاح على شجرته، ويقبض على حجر السقي عند ساقها، وينصرف حين ينتهي عمله. وتنقص البئر البعيدة، فينزل أبو مريم درجاتها كل مساء وينظر إلى الخط الرطب على الحجر.

في الصيف الذي جفّت فيه الآبار الصغيرة، صار ينزل أبعد.

جاءه يوسف يوماً يحمل ورقة إنذار، فوجد عنده مريم تقطع خبزاً يابساً وتضعه في لبن.

قال أبوها وهو يقرأ:

«اكتب لهم أن البئر لم تشكُ.»

ضحكت مريم.

ولم يضحك يوسف. شعر بالإهانة؛ لأنه جاء موظفاً، ولأن حذاءه كان مشقوقاً عند الإصبع، ولأن الرجل لم يدعه إلى الطعام إلا بعد أن فرغ من كلامه.

هذا ما تذكره بعد ذلك، وهو يمسك القلم في الديوان: ليس سعال أمه وحده، بل ضحكة مريم أيضاً.

طلب منه رئيسه أن يثبت أن أباها يسقي البساتين لقاء مال لا يصرّح به.

قال يوسف:

«لا أعرف أنه يأخذ مالاً.»

دفع الرجل إليه طلب علاج أمه، وكان مختوماً بالموافقة.

«تحرَّ إذن.»

ظل الطلب أمامه ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع كتب أنه سمع من بعض أصحاب البساتين ما يؤيد الشبهة. لم يذكر أسماءهم، لأنهم لم يكونوا موجودين.

وحين جاء الجنود، شتمهم أبو مريم عند فم البئر، وضرب أحدهم بعصاه. أخذوه بتهمة مقاومة الأمر، ثم أعادوه بعد أحد عشر يوماً.

عاد يمشي مستنداً إلى رجلين.

ومات قبل انقضاء الشهر.

أما البئر فأُغلقت بخزان محكم، وصار ماؤها يُباع في الجرار.

بعد أسبوعين رأى في السوق جراراً مختومة بختم الديوان. وكان يعرف الرجل الذي يقبض ثمنها.

* * *

قالت مريم:

«منذ متى تعرف أن تقريرك كان كذباً؟»

نظر إليها، مستغرباً السؤال.

«منذ كتبته.»

«وماذا ظننت أن الديوان يفعل برجل كتبوا عنه أنه باع ماء البئر سراً؟»

لم يجب. كان يعرف ما يفعله الديوان.

كانت تنظر إلى ركبتيها. رفعت خيطاً عالقاً بثوبها، ولفّته حول إصبعها حتى انقطع.

قال:

«كانت أمي تموت.»

«وأمي؟»

لم يكن قد فكّر في أمّها. عرفها أرملةً منذ سبعة أشهر، لكنه لم يفكر فيها زوجةً في تلك الأيام الأحد عشر.

قال بصوت منخفض:

«أعرف.»

رفعت رأسها.

«لا تقلها بهذه السرعة.»

سكت.

كان يريد أن يحكي لها عن الوسادة، وعن الصيدلي الذي أخفى الدواء حين رآه يدخل، وعن شعوره أمام مكتب رئيسه. أراد أن يجعلها تقف معه هناك، ولو لحظة، وترى الورقة المختومة.

ثم أدرك أنه سيظل يزيد التفاصيل حتى لا يبقى لها مكان تقف فيه سوى مكانه.

قال:

«جئت لأنني أحبك.»

أغمضت عينيها.

ندم قبل أن تفتحهما.

قالت:

«كنت أتمنى لو تركت لي هذا وحده.»

* * *

لم تبدأ محبتهما يوم حمل إليها خبر موت أبيها، وإن ظل يشك في ذلك بعدئذ.

كان يعرفها قبل الحادثة بثلاث سنوات. تستعير منه الكتب وتعيدها وفي هوامشها أسئلة غاضبة، أكثرها موجّه إلى أشخاص الروايات، وأحياناً إلى مؤلفيها.

مرة كتبت تحت جملة عن التضحية: «هل سأله أحد إن كان يريدها؟»

قرأ السؤال مراراً، ثم اشترى لها نسخة جديدة، كي يحتفظ بالنسخة التي كتبت فيها.

بعد موت أبيها، صار يأتي بالدواء لأمها، ويتولى مراجعة الأوراق، ويجلس مع أخيها الصغير في الحساب. ولم يطلب منه أحد ذلك.

في البدء كانت تقول له: «أتعبناك.»

ثم صارت تقول: «تأخرت.»

وكان يذهب إلى بيته سعيداً بتأخره، لأنها انتظرته.

ذات مساء وجدها نائمة على الكرسي، وفي يدها جورب لأخيها لم تتم رتقَه. أخذ الإبرة منها قبل أن توخز إصبعها. استيقظت على حركته، ولم تسحب يدها.

ذلك المساء ظل يعود إليه كلما احتقر نفسه.

* * *

سألته مريم:

«هل كنت ستقول لي لو رفضت الزواج منك؟»

جاء السؤال هادئاً، حتى إنه كاد يجيب بما يليق به من جواب.

لكنه رأى أن هذه فرصته الأخيرة في تلك الليلة ليقول شيئاً لا يحسّن صورته.

«لا أعرف.»

أومأت.

ثم قالت:

«أنا أعرف شيئاً أسوأ.»

نظر إليها.

«كنت أفرح حين تأتي.»

قالت ذلك بغضب، كأنها تتهم نفسها أمامه.

«في آخر أيام أبي كنت أتضايق منه. كان لا ينام، وينادي كلما جلست. مرةً تظاهرت بأني لم أسمع. بقي ينادي، وكنت جالسة خلف الباب أنتظر أن يسكت.»

ابتلع يوسف ريقه.

تحرك نحوها دون أن يشعر، فرفعت يدها.

«لا.»

توقف.

قالت:

«كنت ستمسك يدي الآن، أليس كذلك؟»

لم يجب.

«ثم أكون أنا التي تحتاج إلى مواساتك.»

هبّت ريح خفيفة، فانقلب غلاف الكتاب الملقى بينهما. مدّت قدمها وثبّتته.

طال سكوتهما حتى سمعا باب البيت يُفتح من ناحية البستان.

نادت أمّها:

«مريم؟»

أجابت:

«أنا هنا.»

«معك يوسف؟»

نظرت إليه.

«نعم.»

قالت أمها:

«قولي له يدخل. العشاء برد.»

وضع يوسف يده على فمه.

للمرة الأولى منذ جاء، بكى.

راقبته مريم، ولم تقل شيئاً. ورأى في وجهها ما حسبه راحة، فخجل من سروره بها.

قالت:

«اذهب الليلة.»

* * *

في الصباح كتب إقراراً.

أفسد ثلاث أوراق قبل أن يتمه. في الأولى كتب عن مرض أمه. وفي الثانية اتهم رئيسه. وفي الثالثة قال إن الفقر دفعه.

قرأ الأوراق الثلاث، فرأى أن أبا مريم يكاد لا يظهر فيها.

كتب الرابعة، وذكر ما فعله، وما عرفه حين فعله، والموافقة على علاج أمه التي تسلّمها قبل أن يكتب التقرير.

ذهب بها إلى الديوان.

قال له رئيسه بعد أن قرأها:

«هل تظن أنهم سيفتحون البئر لأنك صرت صالحاً؟»

كان هذا أشد ما قيل له؛ لأنه وافق شيئاً كان يرجوه.

قال:

«لا أعرف.»

«وستعيد أمك إلى حالها؟»

مدّ يوسف يده إلى الورقة.

أمسكها الرجل من طرفها الآخر لحظة، ثم تركها.

في ذلك اليوم فقد عمله.

وفي الصباح الثالث جاء رجل من الديوان، وأخذ ورقة الموافقة عن الرف دون أن يطلبها. كانت تتيح لأمه أن تعود إلى الطبيب وتصرف دواءها كل شهر. لم تسأل أمه عنها. كانت قد عرفت من وجه ابنها قبل أن يُطرق الباب.

وفي الأسبوع التالي استُدعي للتحقيق، وحين عاد وجد أمه جالسة عند النافذة بثياب خروجها.

قالت:

«نذهب إلى مريم.»

«لماذا؟»

«أقول لها إنك فعلت هذا من أجلي.»

جلس قبالتها.

كانت صغيرة في ثياب الخروج، أصغر مما تبدو في فراشها.

قال:

«لا تذهبي.»

«أتتركها تظنك...»

لم تستطع إتمام الجملة.

وكان يريد أن يرتمي عند ركبتيها. أن يكون ابنها وحسب، طفلاً فعل شيئاً مخيفاً، فتضمّه وتنهي الأمر.

قال:

«دعيها تظن ما تعرفه.»

بقيت عند النافذة حتى أظلمت الغرفة. ثم طلبت منه أن يساعدها على خلع حذائها.

* * *

لم تُفتح البئر.

استمرت الجرار تمر في الطريق، وقلّ ما يصل منها إلى البستان. وفي آخر الصيف قُطع غصنان من شجرة الرمان.

أما يوسف فصار ينسخ عرائض الناس عند باب المحكمة. كان بعض زملائه يمرون فيسلّمون عليه بحرارة زائدة، وبعضهم يعبر إلى الجهة الأخرى.

لم ترسل إليه مريم.

وكان يراها أحياناً من بعيد، فيغيّر طريقه، ثم يحتقر نفسه لأنه يريدها أن تلاحظ تغييره الطريق.

بعد أربعة أشهر، جاءت وجلست أمامه.

وضع القلم.

قالت:

«أحتاج عريضة للبئر.»

أخرج ورقة بيضاء.

ذكرت أسماء الورثة، وتاريخ الإغلاق، وما يطلبونه. كان يكتب، ويتوقف ليسألها عن شيء يعرفه، لأنها جاءت إليه بعمل، وأراد أن يحسن أداءه.

حين فرغ، دفع إليها الورقة.

قرأتها مرتين.

ثم قالت:

«نسيت اسم أبي.»

كان قد كتب: «المالك المتوفى».

أخذ الورقة وشطب العبارة، وكتب اسمه كاملاً.

بقيت تنظر إلى الخط حتى جفّ.

قالت:

«أحياناً أشتاق إليك، فأغضب منه.»

لم يرفع رأسه.

«ثم أغضب من نفسي. ثم أتذكر أنك أنت الذي فعلت، فأستريح قليلاً.»

وضع القلم إلى جوار المحبرة بحذر.

قال:

«كنت أنتظر أن تسامحيني.»

«أعرف.»

«لن أسألك.»

نظرت إليه طويلاً.

«لا تعدني بشيء آخر اليوم.»

طوت العريضة، لكنها لم تقم.

مرّ رجل يحمل جرّة ماء، فارتفع صوت الماء فيها حين وضعها عند السقاية. تابعه يوسف بعينيه، ثم عاد إليها.

قالت:

«أمي عرفت.»

انتظر.

«بقيت تضع صحنك على المائدة أسبوعاً. ثم كفّت.»

ثم سألته:

«هل أكلت؟»

هزّ رأسه.

وكان قد أكل قبل ساعة.

نظرت إلى وجهه، فتنهدت، وابتسمت ابتسامة صغيرة أوجعته أكثر من كل ما قالت.

قالت:

«إذن اجلس معي حتى أجوع.»